بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد

العلم عندما يتأنسن

من أخطر ألعاب اللغة التي نجح الغرب في تسويقها، مصطلح «العلوم الإنسانية» الذي يطلق اليوم على الفلسفة والحقوق وعلم الاجتماع والآداب والتاريخ والأنثروبولوجيا وغيرها، فهذه العلوم في تأسيسها الغربي، أثبتت في تطبيقاتها السياسية أنها ليست إنسانية، يعني ليست من أجل الإنسان ورقيّه أينما كان، وإنما موضوعها هو التحكم بالإنسان، فموضوعها الأساس هو هندسة المجتمعات بما يتوافق مع المصالح المرئية بعينٍ أحاديةٍ عنصريةٍ. الإنسان هنا مستهدفٌ وليس هدفاً، هو فريسة المعرفة لا نتاجها، ما يجعل بنية العلم كلها بحاجةٍ إلى تحريرٍ وأنسنةٍ، وهذه مهمةٌ يصعب على جهةٍ واحدةٍ في العالم أن تقوم بها وتحتاج إلى أمةٍ من العلماء تقارب العلم كخادمٍ للإنسان لا لمستخدمٍ له.

سواءٌ في الغرب أو الشرق، في الشمال أو الجنوب، برزت أصواتٌ محترَمةٌ بين العلماء من أجل منظومةٍ معرفيةٍ جديدةٍ، تصالح بين حق الإنسان في المعرفة وحقوقه في التحرر والتنمية. يبدأ الأمر في منع احتكار العلم عبر احتكار الثروة

التي تزود الأبحاث العلمية بمواد البحث وموازنات الأبحاث، ثم تصل بنا عملية تحرير العلم وأنسنته إلى من يحتكرون السلطة المتحكمة بالثروة، وهكذا فإن بدأنا في عملية التحرير سنجد أنفسنا أمام تحديات تحتاج بالفعل إلى أمةٍ عالميةٍ لا تنتمي إلا إلى القيم الإنسانية الأصيلة وكرامة الإنسان. والشعوب بفطرتها تميل إلى القيم إذا تحرر وعيها من دوائر التحكم في التعليم والإعلام والسياسة، يكفي أن نثابر على نقد العلوم المؤسسة على التحكم، ونعمل على إعادة إنشاء البدائل المناسبة بصبرٍ وثباتٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

في هذا العدد:

1. موقف المستشرقين من التصوف الإسلامي يعرض له الدكتور عبد الرحمن تركي شارحاً عوامل انجذاب المستشرقين للتصوف واهتمامهم به خصوصاً لجهة ربط الأمة الإسلامية بالكسل والتواكل في عصور الانحطاط، أو لجهة البحث عن تأثيرٍ مسيحيٍّ في الإسلام. ولم يخلُ الأمر من تأثّر بعض المستشرقين بالاتجاهات الصوفية في الإسلام حتى أنهم اعتنقوا الإسلام وتحولوا إلى صوفيين كما هو الحال مع رينيه غينون.
2. ميجيل آسين بلاثيوس (1871-1944) مستشرق إسبانيٌّ مرموقٌ نذر حياته للبحث في الخدمات التي قدمتها الأندلس للفلسفة والتصوف بدءاً من ابن مسرة وصولا إلى ابن عربي.

يعرض الدكتور أحمد عبد الحليم عطية جملةً من الكتابات العربية المعاصرة عن بلاثيوس، الذي يبدو من خلال العرض جادّا في البحث عن التأثير المسيحي في التصوف الإسلامي والعكس... مع روحٍ وطنيةٍ تنسب إبن عربي إلى إسبانيا وتعتز

(1) سورة العنكبوت، الآية 69.

بـه.ولا يختلـف بلاثيـوس باعتبـاره قسيسـا عـن غـيره مـن التبشـيريين إلا بمقـدار مـا يحـاول أن يكـون محترمـا للـتراث الإسـلامي ومعترِفـا بفضلـه، ولكنـه بالمقابـل يسـتغرق في البحـث عـن النظائـر والأشـباه محـاولا تكريـس فكـرة الأثـر المسـيحي في التصـوف الإسـلامي الأندلـسي. وهنـا تغيـب عـن دراسـاته عمليـات البحـث في جـذور فكـرة الحـب الإلهـي في القـرآن الكريـم.

3.الاسـتشراق في فكـر إدوارد سـعيد قـراءة في منهـج الخطـاب، للدكتـور لطيـف نجـاح شـهيد القصـاب، مقاربـة نقديـة تضـاف إلى آلاف الصفحـات التـي كتبـت بعـد انفجـار أطروحـة إدوارد سـعيد في كتابـه الإسـتشراق. وفي رأينـا أنـه نقدٌحـترم يحتـاج أيضـا إلى نقـد محـترم، ولذلـك سـنحاول في بضـع نقـاطٍ أن نفتـح السـجال مـع النـص الـذي يسـتحق التدبـر والاهتـمام.

أولاً: يهمـل الناقـد العنـوان الفرعـي للكتـاب ويركـز عـلى كلمـة اسـتشراق وحدهـا مـع أن العنـوان الكامـل هـو «**الإسـتشراق: المعرفـة، السـلطة، الإنشـاء**»، وهكـذا فـإن الرسـالة التـي أراد أدوارد سـعيد توجيههـا مـن خـلال كتابـه، هـي مـا كان ينقـص كل الدراسـات الإسـتشراقية بشـكلٍ أو بآخـر، وخلاصتهـا أن المعرفـة في الغـرب ليسـت إلا حقـلاً مـن حقـول السـلطة، وأن مصلحـة هـذه السـلطة الغربيـة الاسـتعمارية تقتـضي «**إنشـاء**» شرقٍ موافـقٍ لهواهـا للإمعـان في مسـخ صورتـه وتسـهيل السـيطرة عليـه سـواءً في المخيـال الغـربي أو الشرقـي.

وطالمـا أن الغـرب هـو المسـتهدف في نتـاج الغربيـين فـإن جمهـور المسـتهلكين للمعرفـة التـي يوفرهـا نتـاج المسـتشرقين، غافـلٌ عـن حضـور «السـلطة السياسـية» في المعرفـة التـي تقـدم بعبـاءة مكـر الموضوعيـة. غابـت فكـرة المعرفـة، كحقـلٍ مـن حقـول السـلطة، عـن النـص، ليحـل محلهـا الـكلام عـن البراعـة

الأدبية واللغوية لإدوارد سعيد، وبذلك أصبح الكلام على هامش الرسالة لا مضمونها العميق.

ثانياً: إن ردود الفعل الغاضبة من المستشرقين الصهاينة تحديداً الذين يضمّنون كل كتاباتهم أجنداتٍ إيويولوجيةً واضحةً كبرنارد لويس، إن دلت على شيء، فهي تدل على مدى بلاغة الرسالة وعمق الفكرة السعيدية، التي عرّت ذلك الكمّ الهائل من التعبئة ضد الشرق والعرب والإسلام في أميركا تحديداً وفي الغرب عموماً، والذي يقدم بعنوان معرفة الشرق. إدوارد سعيد قالها ببلاغةٍ فائقةٍ: هذه ليست معرفةً موضوعيةً بل سياسةً وإيديولوجيا تقدم نفسها على أنها علمٌ.

ثالثاً: أهملت أهمية المكان الذي يتكلم فيه سعيد، مع أنه قال أنه يكتب من «**خارج المكان**» الذي ينبغي أن يكون هو فيه، وهو عبارةٌ عن دولةٍ عظمى تسخّر إمكانياتها لدعم مشروعٍ صهيونيٍّ، بسبب الهيمنة الصهيونية على مصادر المعرفة فيها. ومراجعةٌ عابرةٌ لما تنتجه مراكز التفكير المتصهينة في أميركا، تجعلنا نفهم أكثر لماذا ذهب إدوارد سعيد إلى ساحة المعركة مع الإستشراق لتحرير الوسط العلمي الأميركي من سطوة الصورة النمطية التي لا تكف مراكز التفكير عن إنتاجها، ولا يكف الإعلام عن ترويجها وبالتالي تسهيل استهلاكها من الجمهور.

رابعاً: لم يشتهر الكتاب فقط بسبب مكانة إدوارد سعيد العلمية فهذا مدحٌ في معرض الذم بل لأنه بالفعل غيّر الأسلوب التقليدي في مقاربة الموضوع، وجند مهاراته الأدبية والفكرية وثقافته العميقة في معركةٍ تُخاض بالفعل على عقل المتلقي الغربي، ونجح في زعزعة الأمان المعرفي الكاذب للسلطة المعرفية هناك.

4. خدمات الاستعراب الإسباني للأدب الأندلسي: دراسة توثيقية للباحث جميل حمداوي، تستعرض اهتمام الاستعراب الإسباني بتوثيق وأرشفة وتأريخ وتدوين وتحقيق ما تركه الأدباء المسلمون الأندلسيون على أمد فترة الحكم الإسلامي التي دامت ما يقارب 800 عامٍ. ويظهر جليّاً كيف اعتنى بعض الملوك الإسبان بتأسيس مكتباتٍ خاصةٍ للمخطوطات العربية ومنها مكتبة إسكوريال الشهيرة، وكيف اعتنى المستعربون بالشعر العربي على أنواعه، بينما حاول آخرون نزع الأصالة عن النتاج الأدبي الأندلسي، ولم يخل المشهد من المستعربين المنصفين.

5. في دراسته عن المستشرق فيرنر كاسكل، يعود بنا الدكتور حامد ناصر الظالمي، إلى ما قبل الميلاد وتاريخ اللحيانيين وعرب الشمال، ودورهم في تأسيس المدن وتطور علاقتهم مع الأطراف، وفي البحث إضاءاتٌ حول أصل الكتابة العربية النبطية وآلهة البدو القدماء، وملاحظاتٌ نقديةٌ مهمةٌ على استنتاجات المستشرق كاسكل.

6. الوحي القرآني بين الفكر الإسلامي والفكر الاستشراقي الحداثوي، بحثٌ يقارن فيه الكاتب يعقوب الميالي نظريات الإسلاميين بنظريات المستشرقين والحداثويين، حول ماهية الوحي ومكانته في عالم الإدراك والمعرفة.

العرض يشمل العديد من الرؤى القيمة التي تستحق المناقشة لدى الإسلاميين، أما ماطرحه الآخرون فيحتاج إلى مزيدٍ من التعرية لكشف الخلفيات غير الفكرية للنظريات التي اقتبسوها أو طرحوها بغية تضعيف حجية الوحي وقوة القرآن في المجتمعات الإسلامية. وهذا النوع من الردود على نظريات تعب الحداثويون والمستشرقون في نحتها يجب أن يتضمن سيكولوجيا المفكر وسوسيولوجيته، فبعض الأفكار

التـي ينسـبونها إلى الوحـي تنطبـق عليهـم أولاً، لأنهـم يعتقـدون أن قيـادة التغيـير في مجتمعاتهـم تبـدأ مـن الطعـن بالقـرآن والنبـوة والوحـي، ومـا ذلـك إلا لأنهـم عجـزوا فعـلا عـن فهـم القـرآن فاسـتقالوا مـن محاولـة فهمـه إلى تجـاوزه.

فكيـف يمكـن أن تكـون حالـةٌ ذاتيـةٌ عقليـةٌ أو روحيـةٌ عـلى أحسـن تقديراتهـم قـادرةً عـلى الصمـود في عـالم المعرفـة الكونيـة طـوال هـذه السـنين، ثـم إن أصحـاب التجـارب الذاتيـة غالبـاً مـا لا تخـرج أقوالهـم عـن أحوالهـم، فـلا كـون ولا نجـوم ومجـرات وجبـال وخلـق وأطـوار خلـق، ومعجـزات بلاغيـة، ورياضيـة، وعلميـة لاتـزال تحـير العقـول إلى يومنـا هـذا... فالحـق أن واقـع المسـلمين الناتـج عـن حكـم الظالمـين هـو المسـؤول عـن بحـث بعـض الحداثويـين عـن تغيـير ماعجـزوا عـن إحداثـه في الواقـع، والقـرآن والوحـي والنبـي غريبـون في عـالم المسـلمين هـذا، ومـن يفهـم القـرآن بعمـقٍ خاصـةً مـن أهـل الذكـر أهـل البيـت عليهم السلام يـدرك مظلوميـة النبـي سـواءً مـن بعـض مـن ينسـبون أنفسـهم إليـه صلى الله عليه وآله وسلم، أو ممـن يتصـدون لتفسـير نبوتـه كظاهـرةٍ عـلى طريقـة علـم الاجتـماع الغـربي التـي لا تؤمـن أساسـاً بمـا فـوق الطبيعـة.

7.رؤيـة جـاك بـيرك وأندريـه ميـكال للروايـة العربيـة تقدمهـا الأسـتاذة الدكتـورة سـليمة لـوكام في قـراءةٍ نقديـةٍ محكمـةٍ لمكامـن الخلـل في النظـرة الاسـتشراقية الفرنسـية للروايـة العربيـة.

عـلى مـا يتميـز بـه جـاك بـيرك مـن صلـةٍ خاصـةٍ بالمغـرب العـربي ولادة وثقافـة تبقـى المركزيـة الأوروبيـة المهذبـة حـاضرةً في قراءتـه لظـروف ولادة الروايـة العربيـة، ولا يقاربهـا إلا مـن منظـورٍ سوسـيولوجيٍّ تاريخـيٍّ بحثـاً عـمّا يسـميه التلاقـي بـين عـدة روافـد في التاريـخ المـصري تحديـداً.

أمـا أندريـه ميـكال فيفصـح عـن مكنـون أسـتاذه عندمـا يؤكـد ربـط تطـور الروايـة العربيـة بالتغريـب.

والحق أن الشعر كان أدب العرب أما الرواية والمسرح فمن إبداعات روما والغرب، ولذلك يشكل رصد تطور الرواية معياراً لهيمنة التغريب على الأدب العربي، الذي لا يزال ينتج بالنسبة للمستشرقين «أدباً نثريّاً» لا يرقى أو لم يرق إلا نادرا إلى مستوى الرواية.

وليس من واجب الأدب العربي أن يتماهى مع التجربة الغربية في الرواية بل عليه أن يخوض تجربته الخاصة من وحي بيئته، وإصرار المستشرقين على جعل التجربة الغربية غايةً ومقياساً بدل إعطاء كل تجربةٍ خصوصيتها هو مثالٌ آخرُ على هيمنة هاجس المركزية الغربية وتعدٍّ على حقنا في الاختلاف ثقافةً وأدباً وبيئةً.

8. في تأملاته حول كتاب «**الأندلس برؤًى استعرابيةٍ**» للدكتور محمد العمارتي، يفتح الدكتور محمد بلال أشمل باباً واسعاً للجدل حول ما يسميه «**الأندلسيات الإسبانية**»، وهو مصطلحٌ منحوتٌ يحاول أن يميز الدراسات الأندلسية عن الاستعراب والاستشراق ويعطيه خصوصيته التي يستحقها، حيث لم يكن المستعربون الإسبان أو معظمهم يقارب التراث الإسلامي في الأندلس من الزاوية نفسها التي تناولها المستعربون والمستشرقون، فبعضهم كان يعتز بها كجزءٍ لا يتجزأ من تراثه الوطني، فيما تناوله آخرون كجسر عبورٍ بين الضفتين. وتحفل ملاحظات الدكتور محمد أشمل بالاستدراكات على الكتاب القيم الذي يفتتح وجهة اهتمامٍ متحررةٍ من الاستشراق التقليديمن جهةٍ، ومؤسسةٍ لحوارٍ حضاريٍّ مع الغرب القريب في تاريخه وجغرافيته انطلاقاً من إسبانيا.

9. نفي الأصالة عن علم النحو العربي من أشهر دعاوى المستشرقين، ولكنه لا يثبت أمام النقاش والدليل العلمي،

فاهتمام العرب بلغتهم مسألةٌ متجذرةٌ في ثقافتهم أضاف إليها القرآن الكريم والسنة والفقه أسباباً أخرى للتعمق عندما أصبحت العربية لغة الإسلام والأحكام، يفصل الدكتور حمداد بن عبد الله دعاوى الإقتباس من اليونانية وما لها وما عليها، وينتهي إلى أن لا علاقة للأثر اليوناني في تأسيس النحو العربي ولكن النحاة بعد عصر الترجمة لجأوا إلى التعاريف متأثرين بالمنطق الأرسطي ولا يعني هذا أن تقسيماتهم اللغوية أصبحت أرسطية حيث ينطلق النحو العربي من الكلمة بينما يدور النحو اليوناني حول الجملة، هذا من جهةٍ، أما من جهة تقسيم الكلمة إلى ثلاث:اسم وفعل وحرف، فإن أقسام الكلام عند اليونان ثمانية. وكل هذا يدل أن العرب حتى في التأثر بقيت لديهم استقلاليتهم النحوية.